داود بركات

صورة وحياة

رزئت الصحافة العربية بوجه عام ، والمصرية بوجه خاص ، بفقد داود بركات رئيس تحرير الاهرام ، وقد كان برُّا بزملائه واخوانه ، مخلصاً لوطنيه لبنان ومصر ، فأطوت بموته صفحة من صفحات القلم المجيدة في الشرق . وقد رغبنا الى صديقه الاستاذ يوسف نجم في كتابة فصل فيه ، فتفضل بالصورة القلمية التالية :

---

١ — صورة من حياته

كهل ربعة القامة واضح الجبين مشرقه ، واسع الحدقتين حادّ البصر نافذه في حياه ، حاضر الابتسامة سريع الجواب . يسير مطرق الرأس بادي التفكير مهمل الشعر واللباس في عصاً لا تحمله بل يحملها هو ، ملقاة على عضده ويده الاخرى لا تخرج من جيبه الاّ لتر على جبينه او لتلقي بغطاء رأسه الى الوراء — تلك صورة لداود بركات وهو ذاهب من منزله بالفجالة الى جريدة الاهرام

يأنف ركوب السيارات ويؤثر عليها العربات إما محافظة على قديمه وهو المحافظ على دينه وعاداته . واما لما يأخذه من رأفة على الحوذيين الذين نضبت موارد رزقهم بعد ان الف الناس ركوب السيارات . ذلك ما حدّثني به داود وتلك صورة اخرى مصغرة لذلك القلب الفيّاض بالرحمة والحنان

فاذا بلغ منزله الثاني في دار الأهرام — ذلك المنزل الذي فيه نتاجه وعروسه وافراحه وآلامه وذكريات شبابه وجني يديه التي يمسحها ويغطي رأسه في غير ما عناية ولا اكتراث واحتفى بالكثير من الوفود الراقبين قدومه وتلطف معهم بالحديث واكرم وفادتهم واخذ في مطالعة اكداس الرسائل الواردة بعناية لا يتوهمها محدثه وهو يسأله عن اموره الخاصة بل ربما اخذ يكتب احدى مقالاته التي لو طالعتها في الغداة لظننته قد كتبها في هدوء الليل وصفاء الذهن والخاطر

فاذا بلغ الليل وهنه وحلّ به التعب خرج محنيّ الظهر متثاقلاً في مشيته الى مقهى اللواء فجلس الى فئة مختارة من اصدقائه وزملائه يباسط هذا ويتبادل النكات مع ذاك حتى اذا

جدّ الجد وجرّهم للحديث الى امر هام فقلّب حاجبيه واستوى على مقعده واخذ يحدثهم بحادث التاريخ وكأنه يقرأ من كتاب او يباحثهم في سياسة اليوم حريصاً في كلامه عفيفاً في انتقاده صادق النظر في حكمه

فاذا طاب لهم طعام او شراب رأيته رقد أوماً الى الخدل فهرول مسرعاً يحضر لهذا كأساً من الشراب ولذاك صنفاً من الطعام فاذا جاء وقت الحساب اعتذر اليك الخدل باستيفائه القيمة من داود تلك هي صورة مصغرة من داود في أهرامه ومن داود بين اصحابه ومنه في كرمه وسخائه

فاذا بلغت الساعة الواحدة صباحاً عاد الى مكتبه واخذ يتفقد ثوب عروسه الأهرام سحراً واثباتاً حتى اذا كانت الساعة الثانية ركب سيارة مستصحباً صديقاً او محرّراً وذهب الى المطبعة في بولاق فالقى النظرة الاخيرة على صفحة يديه . ثم ينصرف الى منزله مطمئناً فالقى ما عليه من ثياب العمل واخذ يقلب كتب التاريخ والصحف والرسائل الى ان يغلبه سلطان الكرى فلا يستيقظ الاّ حوالي الظهيرة ليتناول القليل من الطعام ثم يعود الى عمله

كذلك صرف داود بركات سنيه الاربع والثلاثين متنقلاً الى الاهرام منصرفاً عن الاهرام

فاما وانا احدثك عن داود رجلاً فلا بدّ لي ان اكشف لك ناحية من نواحي حياته يجهلها الكثير من الناس حتى اقرب اصدقائه اليه . تلك حياته في منزله بين اهله وذويه

كان داود اذا أوى الى منزله وانصرف عنهُ زائروه ينصرف بجملته الى اخوته واخواته وبنيهنّ الأيم ومنهنّ الفتاة ويحنو على ابنائهنّ وبناتهنّ فيباسط هذا ويداعب تلك طفلاً مرحاً ساذجاً لا تظن اذا رأيته بينهم وبينهنّ ذلك الكاتب العبقري الحرير الذي يخشى بأسه العظماء وتزلف اليه ارباب المناصب وكبار الادباء

وربما طاب لداود — وكثيراً ما كان يطيب له — ان يدعو الى منزله رهطاً من اصدقائه واخصائه وليس منهم الاّ كل أديب فيبذل لهم الحديث العذب والحيّا الباشّ قبل الطعام والشراب ويجمع لهم في منزله دواعي الانس من غناء وطرب واسباب لهو وسمر وكان أحب شيء اليه ان يكون المجلس حافلاً بالاحداث والاطفال كأن هذا الكبير بكل شيء كان في سذاجة الاطفال والرضعان في طيبة قلبه وسقاء نفسه ورضي خلقه وقديماً كانت الشعور البيض تحنو على الشعور السود

وقلما كانت تخلو دار داود — ولهف نفسي ان تصبح اليوم وحشاً — من طالبي الحاجات وسائلي الحسنات ، يطرقون بابه ليلاً وفي النهار في ساع الطعام والقيلولة فيستقبلهم هاشّاً باشّاً يواسيهم ويسليهم ويتوجع لآلامهم وشكاتهم ويعدهم بقضاء حاجاتهم وقد طالما قضى اللبانات واغاث الملهوفين ونصر طلاب العلم والعمل بوجاهته ووساطته وماله على شدة حاجته الى المال

وكان اذا وجد متسعاً من الوقت اسرع الكرة الى الجمعية الخيرية المارونية التي تمت بفضل

عنايته وتشرفت فيما بعد برآسته ليدبّ رجالها بآرائه الصائبة وينظر في حاجة فقرائها

ولم تكن شواغله الكثيرة واخلاصه لوطنه الثاني — مصر التي اظلته سماؤها ورواه نيلها وألهمه جوّها وآخاه ابناؤها واخذ بيده عظماؤها — لم يكن كل ذلك ليُنسيه وطنه الاول لبنان بل ظلّ امينًا على ولائه مخلصًا له في حبّه غاضبًا لغضبه عاملاً على اعلاء شأنه وهو الذي كانت له اليد الطولى في تأسيس «جمعية الاتحاد اللبناني» التي أُسست قبل الحرب وقبلها وبعدها اجلّ الخدمات للبنان وساعدته على نيل استقلاله . ولو صدق وعد الواعدين لكان هذا الاستقلال أتم وأكمل

وقد كان الوفاء اظهر صفات الفقيد رحمهُ الله . فقد كان وفيًّا كل الوفاء لوالديه ولاخوته ولاقربائه واصدقائه وللاهرام وصاحبها ولوطنيه العزيزين مصر ولبنان

برّ بوالديه فاقام لهما في مسقط رأسه بحمشوش ضريحًا فخمًا وبنى لله كفّارة عن نفسيهما معبدًا لاقامة الصلاة وبرّ باخوته فربّاهم التربية الحسنة العالية ومنع نفسه عن الزواج ليتمكن من الانفاق على اخوته واخواته . وبرّ باصدقائه فما ضنّ على واحد منهم بمساعدة او موآزرة او مشاطرة في فرح او حزن او تفريج كربة او بلاء

وبرّ بالاهرام وصاحبها امدّ الله بعمره فاحتضنه صغيرًا وبذل له من حياته وأدبه وعلمه وكان كالجندي في ساحة الوغى قضى وقلمه بيده . ووفى لوطنيه حقهما فدأب للدفاع عن مصر ولبنان وقضى حياته يعمل لخير مصر ويناضل عن حقوق مصر ويجاهد في سبيل مصر باخلاص ويقين وسعة اطلاع وحسن عقيدة وروح وثابة وقلم سيّال وهذه وقفاته الى جانب المرحوم مصطفى كامل ومقالاته « مصر والسودان » و« تعالوا الى كلمة سواء فان الحق احق ان يتبع » اصدق شاهد على حسن بلائه وصدق جهاده

وكان يعمل الجهد المستطاع على التأليف بين وطنيه وقد طالما تمنّى على الله جمعهما في وطن واحد وهذه مقالاته في تاريخ « ابراهيم باشا والامير بشير الشهابي » و« اني اخاف على السديانة ان تقطع » اوفى دليل واصدق شاهد على اخلاصه ووفائه

٢ — صورة من ادبه

كان داود بركات رحمهُ الله صحافيًّا واديبًا وقلّ ان تجتمع هاتان الصفتان في كاتب

كان فيه من الصحافيّ حسن الكياسة وسرعة الخاطر ودقة استخراج النتائج من الحوادث اليومية وبعد النظر في استجلاء النتائج البعيدة للحوادث الواقعة وكان فيه ميزة قلّ ان نجدها في صحافيّ غيره وهي تلك المقدرة على الاشارة الى مرام خفية واغراض خاصة مقصودة باسلوب واضح ولكنه غير صريح جليّ ولكنهُ مبهم لا يخفى على عين الرقيب وهو مع ذلك لا يعرّض كاتبه لنقمة حاكم او لانتقاد منتقد او غضبة غاضب ولعلنا نوفق في وصف هذا الاسلوب اذا

اصطلحنا على تسميته « بالبيان بالكناية او بالتورية والايهام » فقد كان يقرأ مقالة داود في صدد امر لا يصح التصريح به اكثر من قارىء وكان كل من قرّاء هذه المقالة يفهم منها ما يجب ان يفهمه او ما يريد ان يفهم بحيث كان يتسكن داود من الخوض في كل موضوع ولو امتنع الخوض فيه دون ان يقع تحت طائل او ملامة، وكذلك تمكنت الاهرام ولا سيما إبان الحرب العالمية ان تطلع قراءها على كل خفيّ ممنوع نشره دون ان تتعرض الى ايقاف او تعطيل . وكان فيه من الاديب دقة التصور وجميل الخيال وحسن الديباجة وجودة الوصف والشعور بما يكتب للناس مما يثير العواطف او يؤلم الناس

فكان اذا رثى تبيّنته شاعراً لا ناثراً في شعوره واسلوبه ولو قرأت رثاءه لتلك السيدة النبيلة ذات الايادي البيض على داود والاهرام — مدام تقلا باشا — لبدا لك منها عاطفة الشاعر وبيان الشاعر واخلاص الوفي . وكان اذا وصف انتقل بك الى اسمى مدارج الخيال وعرف كيف يكسو موصوفاته اجمل الصور واصدقها بحيث تلمس ما يصفه وتحس به بارزاً في شكل محسوس رائع

وكان داود بركات تاريخاً حيًّا صادقاً لمصر وحوادثها ولوزراء المصريين الذين تولوا الحكم منذ النصف الاخير للقرن التاسع عشر وكان فوق ذلك حافظاً لانساب المصريين واسرهم وحياة رجالاتهم ومذاهبهم السياسية ونزعاتهم الفكرية بحيث كان اذا شاء ان يكتب عن حدث او واقعة تاريخية او معاهدة سياسية او مسألة حزبية لا يرجع الى كتاب ولا الى تاريخ بل يملي كل ذلك عن ذهنه وذاكرته وتلك قوة لم يؤتها الاّ داود رحمه الله

وكان في عقيدته السياسية على مبدإ الحزب الوطني مخلصاً كل الاخلاص لهذه العقيدة فكنت اذا ذكرت على مسمع منهُ اقطاب هذا الحزب وعلى رأسهم المرحوم مصطفى كامل امتلأ صدره حماسة وفاض لسانه في بيان فضل مصطفى على مصر والمصريين بما بثّه في صدور النشء من روح الوطنية والتضحية والاقدام

فاذا اجمعت اليوم كلمة الصحافة في الشرق على اطراء داود بركات والثناء على مقدرته الصحافية وخلقه المتين وادبه العالي وعفة لسانه . وجمال بيانه ووفائه لاهله واهرامه واخوانه فلا تكون فيما تكتبه مبالغة اومغالاة . فقد كان — برد الله ثراه — من ابرع الصحافيين في الشرق وأعفهم قلماً واقلهم عنفاً في الخصومة واغزرهم بياناً ومعرفة واحفظهم للحوادث التاريخية واكثرهم الماماً واتباعاً للنهضة المصرية وللحركة الفكرية ولا شك ان وفاته قد محت صورة جميلة تاريخية من صور الصحافة والادب والخلق والوفاء . وان الشرق قد لا يتهيأ له قبل انقضاء نصف جيل من الزمن ان يكوّن من النشء الجديد صحافيًّا له من المقدرة وطول الباع والكياسة ما كان للمرحوم المغفور له داود بركات